لافونتين

LA FONTAINE

(١٦٢١ — ١٦٩٥)

بنو آدم كالنبت ونبت الأرض ألوان
فنهم شجر الصندل والكافور والبان

للأستاذ محمد حسني عبدالله

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

الخرافة وازدواج الشخصية عند لافونتين

ولقد عرف المُشراء والأقربون في هذا الشاعر ، من تصرفاته وأحواله ، إنساناً قليل الانتباه لمجرى الحوادث ، قليل الاحتفال بوقائع الحياة ، منصرفاً عن حركات الناس وسكناتهم ، متشاغلاً عن حديثهم ولغوهم ، شارد الفكر فيما لم يكن في مستطاعه الدلالة عليه إذا بدهه سائل بالسؤال عما يشغله ويذهب بلبه . فكان يبدو ساذجاً أشبه بأبله ، من العصي عليه أن يصف لأحد مشافهة ما رأت عينه أو يعيد عليه ما وعت أذنه . فهو لم يكن يُعنى — فيما ظن خلصاؤه وبطانته — بشؤون الناس في شيء ، عظُم أم حقُر — حتى ولا بشأنه ؛ فكان همه في الحياة — كزعمهم — العيش فحسب ؛ ومثله الأعلى — كحدسهم — الاستكانة للواقع والانصراف عن الجهاد والكفاح استمراء للكسل مضافاً إليه قليلاً من الحُب ليمد العيش بالنضارة والحلاوة كقليل الملح إذ يصلح الطعام ويجعل له طعماً سائغاً

ولكن كل من قرأ دواوين خرافاته يحث فيها تصويرها الجامع لألطف المعاني والأخيلة ، الحافل بأدق الأحداث وأشدها ، تطلباً لليقظة ، عرف فيه كما قد عرف مؤرخو الآداب والناس عامة ، يَقِظاً مرهف الحس ، فطناً لكل ما ظُن أنه غافل عنه

فللرجل إذن خلقان على طرفي نقيض : أحدهما واضح المعالم ظاهر للعيان ساخر من الحياة ، غير عابئ بواجباتها حتى واجبات الأبوّة والزوجية ؛ والآخر خفي مستبطن ، ولكنه يقظ منتبه لكل ما يدور في ملعب الحياة . وثمة انسجام وتآلف بين هذين الخلقين ساق إلى تفادي أضرار هذا التباين بالتنفيس عن الجانب المستتر من خلقه في أدب الخرافة التي كان إخراجها للناس برهاناً على ازدواج الشخصية عنده وجمعه لعجائب الأضداد

خرافة لافونتين والناس

وكما أن إلياذة هوميروس وأوديسته هما سجل اليونان الحافل ، وديوان أدبهم ، المحدث في صدق عن معتقدهم ، المصور في دقة لنظمهم ومراسمهم خلال حقبة طويلة من تاريخهم القديم ، فكذلك خرافات لافونتين — هوميروس الفرنسي — مرآة صادقة للحياة الاجتماعية في عصر من أحفل عصور التاريخ السياسي والأدبي عند الفرنسيين ، ومعبر صريح عن الروح الغالية الساخرة العابثة الفطنة في القرن السابع عشر ، إذ أراد فيها لافونتين بتصويره حاشية الأسد وجماعته من الحيوان ، مجتمع معاصره لويس الرابع عشر نفسه ، بلاطه وشعبه

وما الصفات التي وزعها على الحيوان — كل بما يوائمه من صفة — كالكرم للأسد القوي ، والحيلة للثعلب الماكر المستضعف ، والغباء للحمار الأخرق ، والطيش للأرنب المستهترة ، والرياء للحرباء المتلون ، والغرور للغراب المستغر ، إلا صفات إنسانية محضة خبرها في أهل عصره وصادفها في مجتمعه فوصفه بطريقته الخاصة — الجادة إذ عبثت — متلطفاً بالمداراة والتأدب في نقد الناس إذا قدح ، متحامياً الملق والتقرب من أي كان إذا مدح . فخلق بذلك عالماً في ظاهره غريب عن الإنسان ، وهو في مستسره وكيد الصلة به . فتهيأت من ذلك للصغار فرصة الإلتذاذ والتفكه

سلوا كل كاتب يحوك الوشي ، وينفث السحر ، وكل شاعر يقول الشعر ، وينظم الدر ، في مصر وفي بلاد الشرق ، بماذا تلتم هذه المنزلة ووصلتم إلى هذه الدرجة من البيان يجيبوك بأنهم لم ينالوا هذه المنزلة إلا بالقراءة الكثيرة ، والحفظ الكثير ومزاولة الكتابة والحديث

إن قوانين الوجود صارمة نافذة أبدية فمن سايرها وعمل على مقتضاها انتفع بها وسار على ضوئها إلى التوفيق ، ومن جهلها لحقه الضرر بهذا الجهل ، ومن أراد التخلص منها ، وحاول أن يخضعها لإرادته عنى نفسه فيما لا يطاوعه ولا يجد إليه سبيلاً .

محمد عرفة

يشؤون هذا العالم الحيوانى العجيب والإفادة منه ، وللكبار فرصة إعمال الذهن وكدح الخاطر فى ربط الصلة بينهم وبين عالمهم واستخلاص الحقائق الواقعية التى أريد بها عصر لويس الرابع عشر خاصة ولكنها تصلح تصويراً أخلاقياً دقيقاً لكل عصر . وبهذا عدت الخرافات فى مجموعها ملحمة فرنسا الكبرى فكانت تراثاً أدبياً إذا أضيف إلى الأنياذة والأوديسه والشهنامة وألف ليلة وليلة ، أعز جانب الأدب العالمى .

هوميروس الفرنسى والأوثول

ولكن يصعب على المنقب فى هذه الخرافات أن يستخلص منها مذهباً أخلاقياً أو مبدأ مثالياً . فهوميروس الفرنسى قد قنع فيها بتصوير الحياة كما هى فأجملها فى قصائد منظومة لا تحسّن حسناً ولا تقبح مرذولاً . وإنما هدفها رسم الأحوال المختلفة وتصوير العواطف البشرية ، شرها وخيرها ، إذ الأمر يتعلق بوصف الحياة لا بنقدها . فالقوة والضعف والغنى والفقر والشر والخير هذه كلها ألوان ليس للحياة منها بد . بل لا محيد للضعيف عن الخضوع للقوى ، ولا مهرب للفقير من استعباد الغنى ، ولا حيلة للخير مع الشر

فلافونتين إذن لا يختط قواعد أخلاقية تتبع ، ولا يبين أغراضاً مثالية تُراعى ، إذ غرضه إزاحة الستار عن حقيقة الحياة الدنيا بغير أن يتطلع إلى خير منها . فإذا عرض للضعيف المغلوب فغالباً يجرده من معونة الغير ومن القدرة على الأخذ لنفسه . وإذا تكلم عن القوى المظفر حشد فى ركابه الدنيا برجلها وخيلها ، وهيأ له النصر المحتوم من طبيعة الأمور . وهو يؤيد ما قيل من أن « جوبيتير » مد على البسيطة خوانين : خواناً للمجدودين أصحاب الجاه والنفوذ والقوة قد صفت عليه ألوان شهية من الطعام والشراب ، وخواناً للمخذولين الخاضعين ، لا يُلقى إليه إلا بالفضالة والفتات . بل المسألة — فيما يرى — أدهى وأمر ؛ فالصغار أنفسهم هم مأكول الكبار القادرين . وأيّاً ما كان الأمر فالامتثال والإذعان واجب الضعيف للقوى والمسود نحو السيد . وعلى الكلب ألا يجهل من يكون السبع الملك ، وأى فضائل تلك التى خص بها دون المخلوقات ، ومتى ينبغى توطين النفس على الرضاء بظلمه وحيفه

على أن الحياة كما هى لا بأس بها ، والألم فيها على أى حال خير من الموت . فشعار لافونتين — مع هذا — الخضوع المطلق للواقع . وهذا شعار لا يرضى الأرادبين وأصحاب الخطة فى الحياة

وقد عاب عليه جان جاك روسو السخرية من الضعيف المغلوب . فبالإضحاك على حسابه يدعو إلى الإعجاب بالغالب المختال ، ويحث على المظالمة والجور . وذكر أن حكمه وأمثاله ليست من النبل والبطولة فى شىء . فكثيرها ينصح بقبول الحياة حتى فى أحط الأوضاع ؛ ثم ينصح بأخذها بالملق والإذعان والدهاء . وما هذه إلا صفات الخاضع الذليل الذى لا يُرجى نفعه

على أن الخرافات فى الحق وإن سخرت كثيراً من الضعاف لا تخلو من الإشارة إلى الأخلاق . وكيف لا والسخرية نفسها سياط تحدو إلى التفطن والانتباه حذر الوقوع فيما يستوعبها من الغفلة والانخذال . وهل أدل على أن لافونتين قد قصد إلى الأخلاق والنصيحة من قوله هذا « ما أردت إلا الإفادة والإرضاء بهذه الصور الوهمية التى أقدمها للعالمين ، فالحكاية لمجرد التسلية شىء يبدو لى تافهاً صغيراً »

كلمة خاصة

ولئن كان أروج الأمور — فيما يرى لافونتين — التسليم للأمر الواقع فان ذلك لا يعنى عنده الغفلة عن المسرة واغتنام فرص الحياة . فهو — وهو أبيقورى المذهب — جد حريص على أن يهيب بالناس إلى الاستمتاع بمسرات العيش ما أسعفت الحيلة ومكنت الفرصة . فما للانسان سوى عمر واحد ، فإن هو بذله فى هم وأحزان ، إن كان وضع فى الدنيا موضع كد وحرمان ، فوالله قد عُرّى من دهره وحرم نعيم الرضاء بأية حال . فالمرء لا يعدم مع الفاقة والمسرة والإذعان للسيد المقتدر ، غبطة القناعة وسرور السلام . وهل استطعمت السباع التى خلفت وراءها ما فاض من مطعمها مذاقاً غير الذى ذاقته الثعالب فى هذا المخلّف ؟ على أن الدنيا فى واقع الأمر دار ضيافة ، وليس من عرفان الصنيع فى شىء أن نغادرها دون الشكر للمضيف أيا ما كان القرى الذى يتيسر لنا من حكم الأقدار